مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أهمية إعادة قراءة التاريخ على ضوء التحديات الراهنة
العلاقات بين المغرب وإسبانيا نموذجًا

د. يوسف كريم
باحث في التاريخ الراهن وتاريخ العلاقات الدولية
مختبر الأبحاث القانونية والسياسية والاقتصادية
جامعة فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

للعلاقات المغربية الإسبانية طابع خاص واستثنائي، وقد حركت هذه الاستثنائية على مدى العصور أقلام العديد من الدارسين والباحثين والمؤرخين الذين أعطوها أوصافا متباينة ووصفوها بالعلاقات الصعبة التي راكمت تاريخًا طويلاً من الجوار القلق. ولكي نفهم أكثر طبيعة هذه العلاقات التي تتراوح بين الانفتاح والتعاون أحيانًا، وبين الاحتراس والتحوط أحيانًا أخرى، يبدو المدخل التاريخي مهمًا جدًا لفهم الأبعاد المعقدة التي توجه صانع القرار الاستراتيجي الإسباني في تعاطيه مع المغرب، حيث يلعب الإرث التاريخي والاستعماري دورًا محوريًا في المعادلة. ما يستطيعه التاريخ البوم بلغة "باتريك بوشرون" (Patrick Boucheron) هو استدعاء البنيات الممتدة في الزمن من أجل فهم السياقات المفسرة للمستبطن والخفي فيما جرى ويجري في الزمن الراهن، انطلاقًا من كون أزمات الحاضر تتغذى على رواسب الماضي، وأن عدم فهم الحاضر يولد بالضرورة من الجهل بالماضي، وأن فهم واقع العلاقات الدولية يبدأ من حيث ينتهي التاريخ. وإذا كان التاريخ يتحرك، فإن ديكتاتورية الجغرافيا جعلت من المغرب وإسبانيا بلدين جارين يطلان على حوض البحر الأبيض المتوسط، وبحكم هذه الجوار الذي يشبه السكن في منزل واحد، فإن ما يجمع المغرب وإسبانيا من مصالح متبادلة وعلاقات استراتيجية، أكبر بكثير مما يفرقهما من خلافات أو سوء فهم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٢	أبريل	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	٢١	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التاريخ الحديث والمعاصر؛ المغرب؛ إسبانيا؛ العلاقات الدولية والعلوم السياسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.282541.1122

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف كريم. "أهمية إعادة قراءة التاريخ على ضوء التحديات الراهنة: العلاقات بين المغرب وإسبانيا نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٩٠ – ١٩٧.

Corresponding author: youssefk8@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

تطبع العلاقات بين المغرب وإسبانيا كثيرا من حالات التوجس والشك وعدم الاستقرار. وحكم على علاقات البلدين الجارين بالعيش تحت رحمة الأزمات والخضوع لمنطق التوتر الدائم والمتجدد، والاحتقانات بتعقيداتها وإشكالاتها، بحكم القرب الجغرافي، ونقاط التلاقي التاريخية بين البلدين، في قضايا شديدة الحساسية، وخاصة في العقدين الأخيرين، وقد سعت مختلف الكتابات إلى تناول العلاقات بين المغرب وإسبانيا بمنطق مغاير لما تعرفه العلاقات بين الدول، فالمغرب لم يكن بالنسبة لإسبانيا مجرد بلد جار، مثلما أن إسبانيا لم تكن بالنسبة للمغرب مجرد ضفة أخرى لبحر يطل عليه، ما جعل حدود العلاقات بين ما هو ثنائي مغربي إسباني وما هو مغربي أوروبي غير واضحة وتتداخل في الكثير من الأحيان(1). فالعلاقات المغربية الإسبانية تبقى شديدة الخصوصية والتفرد، حيث يلعب الإرث التاريخي والاستعماري دورًا محوريًا في المعادلة، ولا يمكن فهم واقع العلاقات بين الطرفين إلا من خلال العودة الى المرحلة الاستعمارية وما قبلها، لما لهما من أهمية في تحديد دينامية تطوير العلاقات اقتصاداً وسياسة، مجتمعًا وثقافة.

وتهدف هذا الدراسة إلى تعرف المبادئ الأساسية التي تتأسس عليها العلاقات بين المملكتين المغربية والإسبانية، وما إذا كانت هذه العلاقات قائمة على الندية وسليمة بين البلدين، أم أنها مبنية على عقلية استعمارية وترسبات تاريخية. كما تسعى هذه الدراسة إلى مناقشة طبيعة ومسار العلاقات بين البلدين، وذلك من زاوية تحليل نستحضر فيها المعرفة التاريخية وضرورة استثمار هذه المعرفة في التحليل. فرغم أن المغرب وإسبانيا قد وقعا في يوليوز ١٩٩١ على معاهدة للصداقة والتعاون وحسن الجوار، هي الأولى من نوعها بين دولة عربية وأخرى أوروبية، إلا أن العلاقات بين الطرفين ظلت طيلة العقود الماضية تتراوح بين المد والجزر، نتيجة لوجود عدة قضايا خلافية معقدة وشائكة، تمتح من خلفيات مرتبطة باستمرار منطق الهيمنة والوصاية، واجترار ندوب الماضي حسب المحطات التاريخية، لذلك فإن الفرضية الأساسية التي تنطلق هذه الدراسة هي أنه لا يمكن فهم طبيعة العلاقات القائمة حاليًا، والمستشرفة مستقبلاً بين المغرب وإسبانيا، دون استحضار البعد التاريخي والحضاري وتسليط الضوء على تاريخ العلاقات الثنائية، المحكومة برواسب الماضي، والموروثة عن الحقبة الاستعمارية وما قبلها.

وتنتهي الدراسة إلى استنتاج مركزي مؤداه أنه إذا كان التاريخ يحتفظ بوديان من المشاكل والخلافات وسوء الفهم بين البلدين، منذ فتح الأندلس إلى تاريخ الزمن الراهن، فإن كل هذه الأحداث والانعطافات يجب أن تظل مجرد تاريخ لأخذ العبرة، وليس لمصادرة المستقبل، وما يتيحه من فرص للتعاون على قاعدة الربح المشترك والحوار الجاد لحل كل الإشكالات العالقة بين بلدين جارين.

أولاً: خلافات الماضي وأزمات الحاضر

ثمة مقولة مشهورة للكاتب الأمريكي أبراهام فيرجيزي (Abraham Verghese) مفادها أن "الجغرافيا هي قَدَرُ الشعوب". وقدَر إسبانيا والمغرب أن يتقاسما ليس فقط تاريخا طويلا وحافلا من الأخذ والرد والمد والجزر، ولكن أيضا حدودا وإطلالة مشتركة على حوض البحر الأبيض المتوسط. وبحكم هذا الجوار الجغرافي الذي "يشبه السكن في منزل واحد"، فقد تندلع بين الفينة والأخرى حالة من الاضطراب والتصادم، بل حتى التوتر، وقد يحصل أن تفتر العلاقات بين البلدين لفترة من الفترات، وتنذر في كل لحظة بأنها معرضة للانفجار بسبب تداخل المصالح وأحيانا بسبب تضاربها.

ورغم أن العلاقات المغربية الإسبانية غالبًا ما تعرف قدرًا من الاستقرار لكن الأزمات التي تندلع بين الأمم والشعوب، كما يقول المؤرخ زكي مبارك، لا تأتي فجأة من السماء، ولا تنبت من الأرض كالطفيليات دفعة واحدة، وإنما نتيجة أفعال وأعمال وأحداث تاريخية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو جغرافية. فما يبدو تمظهرات آنية وظرفية لأزمة عابرة قابلة للتغيير والتجاوز، قد يجد تفسيره في خلفية ثقافية تشكل

امتدادا لبنية سلوكية تشكلت على مدى سنوات أو عقود، بل وحتى قرون. وتأخذ هذه الدراسة كنموذج للاشتغال، إحدى الأزمات الحديثة التي نشبت بين المغرب وإسبانيا منذ بداية الألفية الثالثة سواء خلال ولاية الحزب اليميني الشعبي أو الحزب الاشتراكي العمالي، وما ورافقها من ممارسات وردود أفعال ومواقف وتمثلات لا يمكن فهمها بمعزل عن الأحداث الماضية التي طبعت تاريخ العلاقات بين البلدين الجارين، وأن إسبانيا لازالت تنظر إلى المغرب كرقم أساسي في سياستها، وكفاعل أثر في تاريخها منذ الأندلس المسلمة وإلى غاية المرحلة الراهنة عبر محطات كانت لها تداعياتها وتأثيراتها على العلاقة بين البلدين.

١/١-الأزمة مع اليمين (ولاية "أثنار" ١٩٩٦-٢٠٠٤)

عرفت العلاقات بين المغرب وإسبانيا تدهورا دراماتيكيا، ووصلت درجة من التحامل تجاه المغرب بسبب وصول رجالات اليمين الإسباني المتطرف إلى السلطة، خصوصًا خلال الثماني سنوات من حكومة خوسيه ماريا أثنار (José Maria Aznar)[٢] بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٤، وهي فترة تميزت بالعديد من الخلافات بين المملكتين. فالحكومة اليمينية التي تدير الحكم في إسبانيا، والمعروفة بمواقفها المعادية والمتشددة والموسومة بالنفحة الاستعمارية تجاه المغرب، تسلمت هذه المرة مقاليد الحكم وهي مضغوطة بتبعات الأزمة الاقتصادية، ومن ثم فهي منشغلة بالبحث عن حلول فورية لهذه الأزمة، التي يوجد جزء منها في الخارج وبشكل أكبر في الخارج القريب، الذي يتضمن بالأساس المغرب، فالمغرب يشكل جزءًا من الحلول بالنسبة إلى إسبانيا. وقد بدأت بوادر أولى الخلافات بين الطرفين، بعد رفض المغرب تجديد اتفاقية الصيد البحري، ورفضه تحمل تبعات الهجرة غير الشرعية المغاربية والأفريقية في إسبانيا، ما جعل الحكومة الإسبانية تستدعي القائم بالأعمال المغربي في مدريد إلى مقر الخارجية الإسبانية، لإبلاغه انزعاج إسبانيا من كثرة عدد المتسللين، وردًا على ذلك استدعت الخارجية المغربية القائم بالأعمال الإسباني في الرباط لتبلغه أن المغرب يقوم بما عليه في مراقبة المرشحين للهجرة غير الشرعية انطلاقًا من أراضيه في حدودإمكانياته وقدراته المادية والبشرية واللوجيستيكية.

وسيعرف ملف الهجرة منذ أواسط ٢٠٠٢ تحولا تجاوز دائرته الثنائية إلى ما هو أعقد وأكبر بعدما قررت إسبانيا طرح الملف على هامش قمة الاتحاد الأوروبي بإشبيلية (Séville) يومي ٢١ و٢٢ يونيو ٢٠٠٢ مطالبة بمعاقبة الدول المصدرة للهجرة وفرض عقوبات اقتصادية عليها إذا لم تبد استعدادا للتعاون. وقد استغل رئيس الحكومة الإسبانية "أثنار" خلاصات القمة وقام بتوظيف قضية الهجرة لأغراض انتخابوية، متهما بعض الدول المصدرة للهجرة (في إشارة إلى المغرب) بتهديد أمن إسبانيا وهويتها الثقافية وأمنها القومي والروحي، لذلك سارعت إسبانيا في عهد حكومة "أثنار" إلى تسليح نفسها بترسانة من القوانين التنظيمية طغى عليها الهاجس الأمني على حساب حماية حقوق المهاجرين[٣]، وكان من مظاهر هذه المقاربة الأمنية لإشكالية الهجرة إقدام الحزب الشعبي على تغيير قانون الهجرة ثلاث مرات[٤].

ستدخل علاقات البلدين منعطفًا جديدًا بعد أزمة جزيرة ليلى، والإهانة السياسية التي لحقت هيبة المغرب الإقليمية والدولية من طرف الجار الإسباني، بالنظر إلى الطريقة الاستعراضية التي تمت بها عملية الغزو والتصريحات العنترية التي تلتها. وأزمة جزيرة ليلى (بالإسبانية: Isla Perejil)، هي أزمة دامت ٩ أيام فقط، (من ١١ إلى ٢٠ يوليوز٢٠٠٢) لكنها كانت أكثر الأيام توترا في تاريخ البلدين منذ الفترة الاستعمارية، وكادت أن تؤدي إلى مواجهة عسكرية، بعد إقدام المغرب على خطوة إقامة مركز مراقبة أمني بجزير ليلى بهدف محاربة الهجرة غير الشرعية والإرهاب في مضيق جبل طارق، قابلتها إسبانيا بإرسال فرقة من القوات الخاصة في إطار عملية عسكرية أطلقت عليها "روميو سيرا". وقد تدخلت الولايات المتحدة بوساطة وزير خارجيتها "كولن باول"(Colin Powell) من أجل حل الأزمة، لتعود الجزيرة خالية من القوات المغربية والإسبانية.

٢/١-الأزمة مع اليسار (ولاية سانشيز من ٢٠١٨ إلى ٢٠٢٣)

في أبريل ٢٠٢١، تفجرت أزمة جديدة بين المغرب وإسبانيا، بدخول زعيم جبهة البوليساريو، إبراهيم غالي، بهوية مزورة تحت مسمى "بنبطوش" للأراضي

الإسبانية، وقد شكل حدث تهريب زعيم جبهة البوليساريو إلى الأراضي الإسبانية بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، وأخرجت إلى العلن ملامح أزمة بين البلدين ظلت تطبخ على نار هادئة منذ تشكيل حكومة بيدرو سانشيز(Pedro Sánchez)، وقد ظهر هذا الوضع جليًا من خلال موقف المغرب تأخير عقد قمة ثنائية هي الأولى من نوعها منذ عام ٢٠١٥، إلا أن الدبلوماسية المغربية اعتبرت هذه الأزمة "أكبر من قضية تهريب متهم بارتكاب جرائم خطيرة ضد الإنسانية، مطروحة أمام القضاء الإسباني، أو أنها ستنتهي برحيله عنها"، بل إن الأمر يتعلق "بثقة واحترام متبادل جرى العبث بهما وتحطيمهما، وأن ما جرى هو اختبار لمصداقية الشراكة بين المغرب وإسبانيا"[٥]. من جهتها، اتهمت إسبانيا، في سياق أزمتها مع الرباط، السلطات المغربية باستغلال ملف الهجرة للضغط على الحكومة وأوروبا عبر فتح الحدود والمعابر في وجه المهاجرين غير النظاميين الذين تدفقوا بالآلاف إلى سبتة ومليلية المحتلتين[٦].

المثير في تصريحات وبلاغات وخطاب النخبة السياسية في إسبانيا، هو حجم التناقض الحاصل بين الخطاب الرسمي الإسباني من جهة، وواقع المواقف والسياسات التي لا تخلو من عداء للمغرب، ومن نظرة استعلائية، وإحساس إسباني بالعجرفة، وتبني خطاب محكوم بغريزة الاستعلاء والعنصرية والغرور، وبعقلية المتفوق الذي لا يعير اهتماما لجاره الجنوبي "القابع في تخلفه". وحتى عندما استدعى المغرب سفيرته في مدريد، لإجراء تقييم للعلاقات مع إسبانيا، كان رد الفعل الإسباني تنظيم مظاهرات أمام مقر سفارة المغرب بمدريد، ووصف المملكة المغربية بنعوت غير مقبولة، وأنه لا يجوز لمستعمرة الأمس أن تسلك هذا المسلك المتمرد، أو تعلن حالة عصيان، علما بأنه حق سيادي وشأن داخلي.

"مع إسبانيا لن يكونوا قادرين على ابتزازنا"، تقول وزيرة الدفاع "مارغريتا روبليس"(Margarita Robles)، كما أن إسبانيا تتخذ "قرارات متأصلة في سياستها ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تؤدي إلى التشكيك في الحدود"، تضيف نائبة رئيس الحكومة الإسباني "كارمن كالفو" (Carmen Calvo) ومن باب التذكير، يتعين على المغرب "ألا ينسى ألا حليف أفضل له أو أكبر من إسبانيا في الاتحاد الأوروبي"، يصرح رئيس الحكومة الإسباني" بيدرو سانشيز" (Pedro Sanchez). ما يعكس أن إسبانيا لا تريد أن تكون علاقتها مع المغرب قائمة على الندية وعلى التنافسية الإيجابية، ولكنها تريدها علاقة مبنية على عقلية استعمارية سابقة ومستحكمة في الضمير الجمعي الإسباني. إن الأزمات الحديثة التي نشبت بين المغرب وإسبانيا، والتي أشرنا إلى بعضها خلال هذه الراسة، وما ورافقها من ممارسات وردود أفعال ومواقف وتمثلات لا يمكن فهمها بمعزل عن الأحداث الماضية التي طبعت تاريخ العلاقات بين البلدين الجارين، وأن إسبانيا لا زالت أسيرة عقدة التاريخ، ولا يزال يسكنها رهاب الماضي، ولازالت تنظر إلى المغرب كفاعل أثر في تاريخها منذ الأندلس المسلمة وإلى غاية المرحلة الراهنة عبر محطات كانت لها تداعياتها وتأثيراتها على العلاقة بين البلدين.

ثانيًا: خلفيات العداء الإسباني للمغرب

إن توتر العلاقات المغربية الإسبانية ليس مسألة سطحية عابرة وعادية، وإنما تمتد في جذور التاريخ لتكشف عن مجموعة من الأبعاد المعقدة توجه صانع القرار الإستراتيجي الإسباني في تعاطيه مع المغرب. لذلك، فإن الفهم العميق لحضور المغرب بكل تشعباته ومظاهره في المخيال الإسباني، يتطلب الإبحار عبر حقب زمنية تمتد من التواجد العربي الإسلامي بالأندلس إلى اليوم، بهدف معرفة الكيفية والمراحل التي جرت بها صياغة الصورة الفكرية حول المغرب في مختلف مظاهر الفكر الإسباني، سياسيًا، وثقافيًا، ودبلوماسيًا.

هناك اعتقاد خاطئ يسود في إسبانيا، مفاده أن ""العدو يأتي دائما من الجنوب"، وهو أن المغرب والمغاربة يتحملون المسؤولية في المصائب الكبرى التي تحل بهم، سواء كانت ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، أي أن الرأي العام الإسباني أصبح مهيئًا لتقبل كل ما هو سلبي عن جاره الجنوبي، لأنه يتماشى مع ما هو متجذر في ذاكرته الجماعية، وخلقت مخيالاً شعبيًا جماعيًا

يرتكز على مجموعة من الكليشيهات والصور النمطية، جعلت من المغربي عقدة العقد بالنسبة للإسبان رغم تغير الأحزاب السياسية وتعاقبهم على الحكم. فالمغربي هو في الأصل محط رفض ذهني مسبق ترسخ عبر القرون، وامتزج في صنعه العامل الجيوسياسي والصدام الحضاري، كما تقول الباحثة السوسيولوجية "خيما مارتن مونيوث" (Gema Martín Muñoz) من جامعة مدريد المستقلة في بحث بعنوان "النظرة الثقافية تجاه المغرب انطلاقا من إسبانيا"، فهو في مخيلة الإسبان بمثابة الجار المباشر، والمزعج الفقير، والمختلف ثقافيًا، والخصم الأبدي الذي توجد معه حسابات لا تنتهي.

ولفهم خلفيات هذه النظرة القاتمة يجب الرجوع إلى أحداث تاريخية سوداء شكلت مع مرور الوقت عقدة الإسبان من المغرب، منها ما يعود إلى بداية الحضور الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنها ما له ارتباط بأحداث خلال القرن العشرين، استمرت بعد استقلال المغرب ونهاية الحماية الإسبانية في شمال المغرب.

٢/١ـ تاريخ الأندلس وإسبانيا الإسلامية

إن فهم الأسباب الحقيقية لهذا "العداء المرضي" من طرف إسبانيا، وما تخبئه صدور الكثير من السياسيين والإعلاميين والرأي العام الإسباني من فوبيا متأصلة وحقد دفين على المغرب، يجد تفسيره الأساسي في التأثير العربي الإسلامي الذي بدأ مع وصول الإسلام للأندلس في القرن الثامن الميلادي، إذ لا يمكن أيضا تغييب الأحداث التي كان المغرب فاعلا مباشرا فيها، والتي تمتد جذورها إلى العصر الأندلسي، حيث بقي المسلمون في بلاد الأندلس ثمانية قرون كاملة، قبل أن تأفل شمسهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. فخلال المرحلة الأندلسية، ما بين القرنين الثامن والخامس عشر، تميزت العلاقات بين المغرب وإسبانيا بالتبعية السياسية للسلطة المركزية بالمغرب، ولا يمكن للإسبان أن ينسوا عند استحضار هذه المرحلة، معكرة الزلاقة (١٠٨٦م) ومعركة الأرك (١١٩٥م) التي بفضلها مدد المرابطون والموحدون حكم المسلمين بالأندلس، وعلى مدى ثمانية قرون تقريبا أسس العرب حضارة في شبه الجزيرة الإيبيرية وتركوا آثارًا عميقة مازالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم، تجلت في انتشار العلوم والفنون والعمران كما في الصناعة والزراعة والهندسة المعمارية إبان تلك القرون الغابرة، مما جعل الأندلس آنذاك مزدهرة ومركز إشعاع في أوربا كلها، ومحجة لطالبي العلم فيها، فقد انفصلت الأندلس تمامًا عن تقاليدها و"انضمت للعالم الإسلامي وتلقت ثقافته"(٧).

هذا الخوف التاريخي من الساكن في الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق يدفع للقول إن إسبانيا مازالت تمارس رقابة خفية على حقبة سوداء من تاريخها، وتتعمد تجاهل الظلم الذي تعرض له المسلمون خلال نفيهم من إسبانيا. فبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، كرست إسبانيا الكاثوليكية جهودها لاجتثاث كل ما يمكن أن يؤدي إلى استمرارية الإسلام في بلاد الأندلس، ونال مسلموا الأندلس النصيب الأوفر من ويلات الحرب الصليبية والتي بلغت درجة اللاإنسانية ، بالنظر لما تعرضوا له من مختلف ضروب وأشكال المجازر والنهب والسلب والاضطهاد والتنصير ومصادرة الأملاك الخاصة، بصفتهم يقطنون جزءًا من أوروبا ويهددون المسيحية في عقر دارها(٨)، ولم يتوقف الحقد المسلط على الموريسكيين الأندلسيين إلا بعد إصدار مراسيم الطرد النهائي في حقهم ما بين عام ١٦٠٩ و١٦١٤(٩)، وملاحقتهم إلى شمال إفريقيا في إطار الصراع القائم بين الهلال والصليب(١٠).

مازالت إسبانيا تنظر إلى تاريخ الإسلام بالأندلس كسلسلة من الصراعات العدوانية، وتظهر المسلم كعدو للملوك الكاثوليكيين، ومازال جزء كبير من النخبة الإسبانية ينساق مع المواقف الرسمية للدولة الإيبيرية، وصعوبة تخلصها من ترسبات الماضي، وإقامة مسافة مع وصية الملكة إيزابيل الكاثوليكية التي أنهت السلطة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي التي خطت على فراش الموت ما مفاده بأن الحدود الحقيقية لإسبانيا تنتهي عند جبال الأطلس المغربية، وهذا ما دفع الإسبان إلى محاصرة ما اعتبروه خطرا مغربيا عبر السيطرة على مواقع استراتيجية في البحر الأبيض المتوسط. وقد انتظرت إسبانيا حتى القرن السادس عشر، ليبدأ العد العكسي في العلاقة بينها وبين المغرب، حيث احتلت أجزاء من البلد، أولها سبتة، ثم مليلية ومجموعة من الموانئ في ساحل الأطلس المغربي. لذلك

يعتبر المؤرخ عبد الواحد أكمير، الخبير في شؤون القارة الايبيرية، أن الإسلاموفوبيا قبل أن تظهر في أوروبا ظهرت قبل ذلك بقرون في إسبانيا، أي منذ طرد الموريسكيين في القرن السابع عشر، بسبب خوف وهمي من تحالف الموريسكيين مع العثمانيين والسعديين والعودة لاحتلال إسبانيا[١١]، وهذا الأمر جعل المؤرخ "بروديل" يعتبر القضية الموريسكية، ما هي إلا حلقة من حلقات الصراع الحضاري الطويل في البحر المتوسط بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي اللذين يتبادلان الغنى والفقر والتفوق والتأخر، ويتناوبانهما[١٢].

٢/٢-فترة الحماية الإسبانية بالمغرب

ليس ثقل التاريخ الأندلسي وحده من لعب دورا في تأجيج حجم العداء والكره غير المبرر الذي يبديه الإسبان تجاه جارهم الجنوبي، بل إن التحولات الكبرى السلبية التي عرفتها إسبانيا خلال القرن العشرين ظلت مقترنة بالمغرب، رغم أن الوجود الاستعماري الإسباني بالمغرب، لم يحظ بما ينبغي من عناية مقارنة بنظيره الفرنسي، وبقي هامشيا وباهتا في إنجازاته وآثاره مقارنة برديفه الفرنسي[١٣]. وقد شكل اندلاع حرب الريف (١٩٢١-١٩٢٦) أهم اختبار تخوضه إسبانيا خارج حدودها خلال القرن العشرين، وكان التوغل العسكري الإسباني في الريف عصيا مكلفا، سرعان ما تحول إلى سلسلة انتكاسات. وفي هذه الحرب، تجرعت إسبانيا هزيمة قاسية ومهينة في معركة "أنوال" بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وفضحت هذه المعركة ضعف إسبانيا أمام القوى الإمبريالية ودفعتها إلى استعمال غازات سامة. وقد كانت نتائج معركة أنوال كارثية على إسبانيا لدرجة تسميتها من قبل الإسبان بكارثة أنوال (Desastres de Annuel)، إذ لا يمكن فهم الانقلاب العسكري الذي حدث في إسبانيا سنة ١٩٢٣ بمعزل عن معركة أنوال، كما عززت هذه المعركة من مشاعر رفض الحرب ونصب العداء للمغاربة في صفوف الإسبان.

عامل آخر تسبب في ترسيخ هذه الصورة النمطية عن المغاربة، يتعلق بالدور الذي لعبوه أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، حين أقدم "الجنرال فرانكو" على تجنيد عشرات الآلاف من المغاربة من شمال المغرب بهدف الإطاحة بالحكومة الجمهورية المنتخبة، إذ لا يمكن نسيان أو تجاهل الدور الذي لعبه المغاربة من الذين ساهموا في عبور فرانسيسكو فرانكو من شمال المغرب إلى إسبانيا، والمشاركة في الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) لصالح الجنرالات الذين تمردوا على الجمهورية الاشتراكية آنذاك، وكان أداؤهم حاسما في هزيمة الجمهوريين وتثبيت الديكتاتورية الفرانكاوية (Franquismo)[١٤] التي حكمت البلاد لنحو أربعة عقود من الزمن. وبحسب المؤرخة الإسبانية دي مادارياغا (María Rosa de Madariaga)، فإن "المغرب أعاد فتح إسبانيا مرة ثانية بقيادة فرانكو"، حيث كانت مشاركة القوات المغربية خلال الحرب الأهلية في بلادها إلى جانب فرانكو، من بين العوامل التي عملت على تأجيج وترسيخ الصورة المتجذرة سلفا في المتخيل الجماعي لدى الشعب الإسباني، حيث استغل الجنرال فرانكو مرحلة عاشها المغاربة في ظل الحماية الإسبانية وما رافقها من مظاهر الهشاشة، لتمرير أفكار وإيديولوجيا معادية لما كانت تصفه بعض الكتابات بـ "العدو الأحمر"، وتقصد به الجمهوريين الإسبان، الذين كانوا يعتبرون "شيوعيين وملحدين"، وظن مغاربة فرانكو أنهم يؤدون رسالة تخدم الإسلام والمسيحية اللتين أصبحتا متآخيتين في خطابات العسكريين الفرانكاويين وفق تلك الإيديولوجية[١٥]، وهو ما جعل مسألة التعبئة الدينية للمغاربة من أجل الحرب إلى جانب فرانكو، تُعَدّ من أكبر عمليات الاحتيال الاستعماري في التاريخ. وما من شك في أن مشاركة القوات المغربية إلى جانب فرانكو قد ساهم في تغذية نظرة الإسبان المعاصرين، لأنهم يعتبرون أن المغاربة، أعاقوا بناء الجمهورية الحديثة، ولذلك ينظر الإسبان إلى أن المغرب جزء من مخيالهم وفاعل في مسارهم[١٦].

يقول الكاتب الإسباني "خوان غويتصولو" (Juan Goytisolo) إن هذا "الكره الغريزي للمورو" الذي غدته طيلة عقود ذكرياتنا السيئة لحملاتنا الاستعمارية البليدة، وتوظيف الفرنكاويين للريفيين المساكين في الحرب الأهلية ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ يعتبر مرضا متفشيا حتى بين من يدعون أنهم يساريون، بل وحتى ثوريين"[١٧]. لم تستطع إسبانيا أن تخرج من قلقها التاريخي المزمن، وأن تتخلص من كتبها القديمة التي

صورت عبور طارق بن زياد بجيشه للمضيق كلحظة مليئة بالعنف والقتل، حيث يتصور المتخيل الإسباني أن مع سفن طارق جاءت كل الكوارث. وحتى بعد رحيل هذا "المورو" إلى الضفة الأخرى للمضيق لم يختف العداء، وإنما تكرس في الكثير من الخطابات والممارسات العنصرية التي يعاني منها المهاجرون المغاربة في إسبانيا. وتستغل أحزاب اليمين، التي على رأسها الحزب الشعبي (El partido popular) وحزب فوكس (partido Vox)، الطروحات الصليبية الاستئصالية المتطرفة في الماضي، من أجل كسب تعزيز مخاوف الإسبان وتوجساتهم، وتوظيف هذه الهواجس كورقة انتخابية لاستمالة أصوات الناخبين(١٨)، كما أن العمليات الإرهابية التي شهدتها بعض المدن الإسبانية (تفجيرات مدريد في ١١مارس٢٠٠٤، و الهجوم الإرهابي بساحة "لاس رامبلاس" (Las Ramblas) الشهيرة بالعاصمة الكطلانية في غشت ٢٠١٧، ولد لدى جزء كبير من الرأي العام الإسباني ربطا مختزلا بين وجود المهاجرين وعدم الاستقرار السياسي والأمني، وازدادت درجات معاناة الجالية المغربية بعد ما تضاعفت نسب الاعتداءات العنصرية ضدهم.

خَاتِمَةٌ

إن تاريخ الخلافات المغربية الإسبانية قديم، قدم وجودهما ككيانات سياسية على ضفتي المتوسط، والأمثلة التي أوردناها على سبيل المثال، تبين أن توتر العلاقات المغربية الإسبانية يمتد في جذور التاريخ، وفيه الكثير من رواسب الماضي الذي مازالت أحداثه تقرأ من خلال حال الحاضر وتشعباته، وبالتالي، فليس من السهل تجاوز الإرث التاريخي الذي يلقي بظلاله على علاقات المغرب بإسبانيا، لأن ثمانية قرون من التواجد العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وأربعين سنة من الحضور الإسباني في المغرب مازالت جاثمة بأحداثها إلى اليوم.

لكن على الرغم من القضايا العالقة، والأزمات التي تندلع بين الفينة والأخرى، فإن الخلاف لم يصل في أي مرحلة إلى القطيعة التامة بين المغرب وإسبانيا، وذلك لأن الطرفين يستمران في إدارة علاقاتهما من منطلق الحفاظ على المصالح المشتركة، فالعلاقات المغربية الإسبانية تبقى متشابكة، مبنية على مصالح متبادلة وذات امتداد تاريخي، ولها أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية كبيرة؛ وبالتالي لا يمكن أن يراهن أي ملاحظ على أن هذه العلاقة ستنتهي بالقطيعة، وهو ما يجعل من التعاون خيارا استراتيجيا للبلدين على صعيد جميع المستويات، خصوصًا في الجانب الاقتصادي الذي تقع عليه مسؤولية إصلاح ما تفسده حسابات السياسة وإيديولوجيات السياسيين. ويمكن القول إن التعاون الاقتصادي بين المغرب وإسبانيا، يعد بمستقبل واعد، بالنظر للإرادة الراسخة للبلدين في إعطاء دفعة جديدة لعلاقاتهما الثنائية؛ من أجل شراكة قوية وآفاق واعدة في العديد من القطاعات الاقتصادية بالبلدين. وليس من باب الصدفة أن يعتبر المغرب بالنسبة لإسبانيا الوجهة التاسعة في معاملاتها الخارجية، وأول سوق في إفريقيا، والثالث من خارج الاتحاد الإفريقي؛ فيما تعتبر إسبانيا أول مورد وأول زبون بالنسبة للمملكة المغربية، لتكون بذلك أول شريك تجاري لها.

من جهة أخرى، لا يزال هناك الكثير مما ينبغي عمله على المستوى الاجتماعي والثقافي والإنساني، باعتباره عاملاً أساسيًا للتعايش البناء؛ فعلى الرغم من القرب الجغرافي ووجود تراث ثقافي وتاريخي مشترك، خاصة في الأندلس، فإننا بحاجة إلى التغلب على حواجز عدم الفهم التي لا تزال قائمة، وتعميق جذور المعرفة المتبادلة بين شعوب البلدين لتعزيز أسس الاحترام المتبادل بين الأفراد والمجتمعات.

العلاقات بين البلدين بلغت مرحلة النضج، ومستقبل العلاقات بين البلدين مستقبل واعد بدون شك، لكنه يحتاج إلى بعض الإجراءات العملية التي تقوم بالأساس على الوضوح وعلى حسن النية والمساواة، لذلك، فإن المطلوب في الوقت الراهن، هو إعادة قراءة الإرث التاريخي والثقافي والحضاري المشترك لكل من المغرب وإسبانيا بنظرة واقعية براغماتية هادئة وبناءة، لأن ما يجمع المغرب وإسبانيا أكبر بكثير مما يفرقهما، وعمق العلاقات بين البلدين أكبر من أن تتجاوزه التقلبات الجيوسياسية.

الإحالات المرجعية:

(١) عبد العالي بروكي **"العلاقات المغربية الإسبانية في سياقها الأوروبي"**، ضمن مؤلف **"العلاقات المغربية الإسبانية المعيقات والآفاق"**، منشورات معهد الدراسات الإسبانية البرتغالية، السنة ٢٠١٢، ص ٤٠.

(٢) للوقوف أكثر على طبيعة شخصية أثار وتكوينه الديني والسياسي، ودوره في تأزيم العلاقات بين المغرب وإسبانيا، يراجع الفصل الأول من كتاب **"الجوار الحذر "للكاتب الصحفي نبيل دريوش**، منشورات سليكي إخوان طنجة، الطبعة الأولى. يناير ٢٠١٥.

(٣) تشدد اليمين الإسباني في ملف الهجرة سيطفو على شكل ممارسات عنصرية عانى منها المهاجرون المغاربة في إسبانيا، وفي هذا السياق نستحضر ما لاقاه هؤلاء في بلدة "إيليخيدو" (El Ejido) التي تقع بألميرية (جنوب شرق إسبانيا)، والتي تحسست طريقها نحو الازدهار بفضل قوة سواعدهم. للتوسع أكثر في هذا الموضوع، يراجع: عبد الواحد أكمير، **"الهجرة إلى الموت، إسبانيا وأحداث إليخيدو"**، منشورات الزمن، سلسلة رقم ٢٨، السنة ٢٠٠١.

(٤) كانت البداية مع قانون ٤/٢٠٠٠ والذي تمت المصادقة عليه في ١١ يناير ٢٠٠٠ بواسطة المرسوم الملكي رقم ٢٣٩/٢٠٠٠، تلاه قانون ٨/٢٠٠٠ والذي اعتبر من أكثر القوانين المنظمة للهجرة إجحافاً وصرامة ضد الهجرة والمهاجرين، وقد تم تعديل هذا القانون بقانون جديد، يتعلق الأمر بالقانون ٣/١٤..

(٥) بلاغ صحافي صادر عن وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الإفريقي والمغاربة المقيمين بالخارج، يوم الاثنين ٣١ ماي ٢٠٢١.

(٦) سبتة ومليلية هما اهم الثغور التي لاتزال تحتلهما إسبانيا في شمال المغرب، منذ نهاية ما يسمى (La Reconquista) حروب الاسترداد. سقطت مليلية أولاً تحت الحكم الإسباني في سنة ١٤٦٧، أما سبتة التي استولى عليها البرتغاليون في عام ١٤١٥ فقد حولت إلى إسبانيا بمقتضى اتفاقية لشبونة في عام ١٦٦٨.وبرغم أن احتلال إسبانيا لهذه المناطق قديم جدا ويعود إلى القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فإن جهود المغرب لاسترجاع هاتين المدينتين وباقي الجزر الجعفرية التي تحتلها إسبانيا على طول الشواطئ المغربية على البحر الأبيض المتوسط لم تتوقف قط.

(٧) خوليو رييس روبيو" المجريطي"، **"الأندلس.. بحثًا عن الهوية الغائبة"**، ترجمة غادة عمر طوسون، ورنا أبو الفضل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤، ص ١٥٣.

(٨) انظر: محمد عبده حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها**، ط ١. مطبعة دار الشعب، عمان الأردن، ١٩٧٧.

(٩) حول قرارات الطرد التي تعرض لها الموريسكيون، يراجع، لمزيد من التفاصيل، كتاب" **أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي**" للكاتب حنيفي هلايلي، دار الهدى الجزائر، ٢٠١٠.

(10) Fernand, Braudel, Les Espagnols et La Berbérie De 1492 à 1577, éd N°02, Belles Lettres étude, Algérie, 2013, pp.200 - 201.

(١١) عبد الواحد أكمير، **"الجالية العربية في إسبانيا"**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت/ أكتوبر ٢٠١٣، ص٢٢١.

(12) Fernand, Braudel, La Méditerranée et Le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, Armand colin, 1965. Paul Carmignani, Autour de F. Braudel, Presse Universitaire de Perpignan, 2002, pp 515-539.

(١٣) للاستزادة حول هذا الموضوع، يراجع: ميمون أزيزا،**"الريف زمن الحماية الإسباني**ة"، منشورات ملتقى الطرق، ٢٠٢١، الدار البيضاء، المغرب.

(١٤) **الفرانكوية** هو تعبير يشير إلى فترة من تاريخ إسبانيا، بعد الحرب الأهلية ١٩٣٦-١٩٣٩، والتي قام الديكتاتوري الإسباني "فرانسيسكو فرانكو" بحكمها، ما بين أعوام ١٩٣٩ و١٩٧٥، وقد وقعت إسبانيا خلال تلك الفترة تحت الحكم الشمولي والفاشي المستبد.

(١٥) ماريا روسادي مادارياغا، **"مغاربة في خدمة فرانكو"**، ترجمة كنزة الغالي، سلسلة ضفاف، منشورات الزمن سنة ٢٠٠٦، ص٢٣٤.

(١٦) محمد العربي المساري، **"مقاربة لصورة المغرب بإسبانيا"**، مجلة المناهل، عدد ٦٦-٦٧ شتنبر ٢٠٠٢، ص ٢٦١.

(١٧) خوان غويتيصولو: "**إسبانيا في مواجهة التاريخ.. فك العقد**"، ترجمة عبد العالي بروكي، منشورات الزمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ١١٩.

(١٨) يوسف كريم، "**دور اليمين المتطرف في أمننة الهجرة بأوروبا**"، مجلة قضايا التطرف والجماعات المسلحة، العدد ٥، ماي ٢٠٢١، ص ١٥.